Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 36:3 (2001)

الترجمة التفسيرية الأردية

للإمام أشرف علي التهانوي –رحمه الله– وبعض خصائصها

محمد الغزالي

الحمد الله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف المرسلين و على آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد فإن أعظم نعمة من نعم اللّه تعالى في عالم الوجود وفوق مسرح التاريخ لهو القرآن الكريم. وإن أقرب قناة للاتصال بين العالم البشري الناسوتي والعالم العلوي الملكوتي هو الوحي المنزّل من السماء إلى الأرض كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهو المعجزة الخالدة والتحدي القائم إلى أبد الدهر ونهاية التاريخ فقد عجزت عنه البشرية وفشلت أمامه القرائح الإنسانية قاطبة. فبطبيعة الحال نقل هذه الظاهرة القرآنية ببلاغتها المطلقة وبيانها الفريد إلى لغة البشر وأدوات التعبير الإنساني ليس بأمر هيّن وذلك لأنه عبارة عن تحويل مفاهيم المعرفة الربّانية اللامتناهية إلى العقل الإنساني المتناهي واللغة البشرية المقيدة بحدود الزمان والمكان وحواجز البيئة النفسية والمحيط الثقافي والمناخ الاجتماعي.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

وإنّ من سنة اللّـه تعـالى ورحمتـه علـى عبـاده أنـه قـرن قيمـة الأعمال والجهود الإنسانية المحدودة بـالإخلاص وحسـن النيـة ولـم يربطها بإحـداث النتائج وإصابة الأهداف وذلك لأنه سبحانه وتعـالى لـم يكلـف نفسـا إلا وسـعها وهـو لا يؤاخـذ النـاس إلا علـى نيـاتهم ومساعيهم في حـدود الطاقـة البشـرية. وهـذا الأمـر هـو الـذي حـثّ العلماء الربانيّين في مشـارق الأرض ومغاربهـا وفـي مختلـف العهـود والأزمنة أن يقبلوا على ترجمة معاني القرآن الكريم ونشر رسالته بيـن الناس مع شعورهم الكامل بنقص قدراتهـم ومحدوديـة ملكـاتهم فـي هذا المضمار.

إن إشكالية نقل معاني القرآن الكريم تختلف بـاختلاف اللغـة والبيئة. فمشكلات ترجمة القرآن إلـى لغـات الغـرب المعـاصرة مثـلا تختلف عن صعوبات نقل معانيه إلى اللغـات الإسـلامية التـي نشـأت وتطـورت فـي محيـط ثقـافي إسـلامي. فاللغـات الأوروبيـة تغـذّت بالأفكـار المسـيحية واليهوديـة إلـى جـانب التـأثيرات الإغريقيـة والرومانية، وهذا مـا يجعـل مـن العسـير نقـل رسـالة القـرآن الكريـم بإعجاز آياتها وبأصالتها وعمقها ودقة مفاهيمها إلى هذه اللغـات لأن المترجم لا يجد بدّا من استخدام التعـابير والكلمـات والمصطلحـات الرائجة في محيطه الحضاري الخاص وفـي سياقه الزمنـي المحـدود فهي بطبيعة الحال تحمل مفاهيم معينة قلّما تنفك عن خلفيتها الثقافية والدينية والنفسية الغربية. ولكن من عني بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغـات الإسـلامية أمثـال التركيـة والفارسـية والأرديـة لا يواجـه

كثيرا من هذه المشاكل لأن طبيعة هذه اللغات مصبّغة بالعقيدة والأفكار والنزعات العقلية والميول النفسية والأذواق التي تتّسم بها الثقافة الإسلامية. ولكنه يواجه طبعا مشاكل أخرى مهمة مثل أداء المفاهيم القرآنية الدقيقة المعنى والبليغة الفحوى إلى لغات ضيقة النطاق قصيرة الباع سواء من حيث ذخيرة الكلمات والصيغ أو من حيث إمكانياتها الدلالية الضيّقة وثروتها البلاغية المحدودة.

وترجمة معاني القرآن قبل كل شيء عبارة عن عملية تفسيرية جادّة فلا يتصور أن يقوم أحد بترجمة كتاب الله إلى أي لسان آخر ما لم يستوعب جيدا رسالة القرآن الكريم وفهم محتوياته وتحديد معانيه ومدلولاته في ذهنه. وكم من آية في كتاب الله تحمل دلالات غزيرة المعنى قليلة المبنى كما لا يخفى على كل مسلم ملمّ بالقرآن الكريم، فلا يمكن لأي مترجم أن يحدد لها مفهوما معيّنا بدون الخوض في الأبعاد التفسيرية لتلك الآيات. فالخلاصة أن الإقبال على ترجمة معاني القرآن الكريم لا يدعو إلى المهارة اللغوية وحدها بل إنما تتطلب أيضاً الاضطلاع الكامل بأصول التفسير وقواعد التأويل والاطلاع الواسع على التفسير بالمأثور وعلى مناهج المفسرين ومدارسهم ونزعاتهم التي تطورت وتبلورت على مدى التاريخ الإسلامي لأن كل كلمة يختارها المترجم وكل صيغة يستحسنها للتعبير عن المراد من كلام الله يدعو إلى موقف تفسيري محدد بكل وضوح وقناعة ويقين.

إن التراجم التي ظهرت في شبه القارة الهندية كثيرة ولا نرى

ما يفنّد القول بأن أول ترجمة للقرآن الكريم إلى أية لغة أخرى ظهرت في التاريخ كانت في بلاد السند في القرن الثالث الهجري باللغة السندية القديمة. والذي سبق الناس إلى هذا الفضل هو العالم المعروف بمولانا إسلامي كما يخبرنا بذلك المؤرخ القديم علي الكوفي في كتابه المعروف بفتح نامه أي **فتح السند** الذي ألّفه في القرن السابع الهجري وسرد فيه قصة الفتح العربي الإسلامي للسند على يد محمد بن القاسم الثقفي ابن أخ الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك[١].

ثم نجد بعد ذلك سلسلة طويلة لترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأردية تبدأ منذ سنة ١١٣١هـ/١٧١٩م حينما قام بهذا العمل المبارك القاضي محمد معظم السنبهلي. وكان يغلب على اللغة الأردية آنذاك العنصر العربي والفارسي أكثر من العناصر اللغوية الهندية المحلية[٢].

ثم بعد ذلك ظهرت إلى حيّز الوجود ترجمة أخرى لمعاني القرآن الكريم وهي التي صدرت من قلم أحد جهابذة العلوم الإسلامية وعلم من أعلام الثقافة الدينية في الهند ألا وهو الإمام المجدّد محدّث الهند الشهير الشاه ولي الله الدهلوي (١١٧٦هـ) فإنه -رحمه الله- قام بجهد مبارك وسعي مشكور في نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية (اللغة الرسمية في الحكم الإسلامي الهندي) بعنوان: **فتح الرحمن في ترجمة القرآن**. ومما يدعو إلى العجب ويحثّ الإنسان على الإعجاب هو أنه ما زالت هذه الترجمة

متداولة بين الناطقين بالفارسية رغم أنه قد مضى عليها قرنان ونصف من الزمان تقريبا، وهذا أمر نادر قلّما نجد له نظيراً في تداول نصّ ما وإقبال الناس عليه خلال هذه المدّة الطويلة من الزمن. وحذا حذو الإمام الشاه ولي الله الدهلوي ابنه الشاه رفيع الدين(ت ١٢٤٩هـ/١٨٢٣م) فترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية لأوّل مرة في التاريخ وظهرت هذه الترجمة للمرة الأول في عام ١٧٧٦م. وكانت هذه الترجمة تتصف بالاقتراب إلى النص القرآني الأصلي ثم قام الابن الآخر للإمام ولي الله الدهلوي الشاه عبدالقادر بترجمة معاني القرآن إلى الأردية مع تفسير موجز في الهامش سمّاه: **موضح القرآن**، وجاءت هذه الترجمة الأردية الثانية بأسلوب سهل بسيط. وقد تلقى الناس ترجمة الشاه عبد القادر بالقبول العام وما زال هذا العمل المبارك مصدر الاستفادة لدى الناطقين بالأردية في فهم رسالة القرآن الكريم مع أنه قد مضى على صدورها مائة وخمسون سنة.

وقد استمر اهتمام العلماء المسلمين في الهند بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأردية منذ هذه الأعمال الأولى حتى بلغ عدد التراجم الأردية للقرآن أكثر من ألف[٣]، ومن الأسباب التي شجّعت علماء الهند على ترجمة القرآن إلى اللغة الأردية أن أكثر من خمسين في المائة من مواد الكلمات الواردة في القرآن الكريم تستعمل في اللغة الأردية بصيغ مختلفة. فربما لا يكون من المبالغة الادعاء بأن أسهل لغة يمكن ترجمة القرآن الكريم إليها، بالرغم من الصعوبات والمشاكل الطبيعية الأخرى، هو اللغة الأردية، وذلك لأن هذه اللغة

قد حافظت على طابعها الإسلامي ومزاجها الديني رغم التأثيرات الدخيلة والعوامل الأخرى التي أثّرت عليها بسبب التعايش الطويل بين الناطقين بالأردية من المسلمين والهنادكة الوثنيين الناطقين باللغات الهندية المحلية.

ولذلك نجد في الحقبة الأخيرة من تاريخ شبه القارة صراعا عنيفا بين المسلمين والهندوسيين حول اللغة الأردية حيث أن الهندوسيين حاربوا هذه اللغة وأصرّوا على ترويج اللغة الهندوكية التي تحمل طابعا وثنيا بحتا- بينما حاول المستعمر البريطاني من جهة أخرى فرض اللغة الإنجليزية بحكم هيمنته ونفوذه- فالمسلمون في الهند واجهوا هذا الغزو الثقافي على الجبهتين وحاولوا المحافظة على أصالتهم اللغوية التي رأوها من أهم عوامل حماية حريتهم الدينية واستقلالهم الثقافي وهويتهم الإسلامية. وهذا ما يفسر أيضا سياسة الحكومة الهندية المستمرة المستبدة منذ استقلال الدولتين الهند وباكستان في عام ١٩٤٧م في إبادة اللغة والآداب الأردية من الجامعات والمؤسسات التعليمية من خلال خطة مدروسة بعيدة المدى لقلع جذور الثقافة الإسلامية من التراب الهندي. ولكن أصحاب البصيرة وأولي العزيمة من المسلمين في الهند طالما أدركوا خطورة هذه القضية فعملوا كل ما في وسعهم للمحافظة على أصالتهم اللغوية التي يكْمُن فيها كيانهم الثقافي وهويتهم الدينية وذلك بصيانة اللغة الأردية وحماية ثروتها الفكرية الإسلامية التاريخية من خلال جهادهم الحضاري المتواصل.

ولكن هذا كله لا يعني أن عملية ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية لا تحمل أي مشاكل أو صعوبات؛ فهناك فروق واضحة بين اللغتين العربية والأردية في قواعد النحو والصرف وأساليب البيان والإنشاء. فعلى سبيل المثال يتكرر الضمير في الكلام العربي في مقام التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيْدُ – إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ – إِنَّنِيْ أَنَا اللهِ – إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى**﴾ وهلمّ جرّاً. فنقل هذه الدلالات القرآنية المؤكدة بهذه الأدوات التأكيدية العربية لا يمكن بالبحث عن مرادفاتها في الأردية لأن هذه اللغة لا تملك هذه الأدوات. فبطبيعة الحال يضطرّ المترجم إلى استخدام الأسلوب التعبيري الخاص بالأردية لأداء المعنى المؤكد المقصود في القرآن. وهكذا نجد مثلا صيغتين مستقلتين للحال والاستقبال في اللغة الأردية حيث لا توجد في الأردية صيغة واحدة تفيد معنى فعل مضارع. فطبعا يحتاج المترجم إلى تحديد صيغة معينة تفيد معنى الحال أو الاستقبال. ونرى مثلا في الكلام العربي في بعض الحالات تكرار الفعل في الجملة سواء في صورة الفعل أو في صورة الاسم أو المصدر أو في صورة النعت من نفس مادة المنعوت كما في قوله تعالى: ﴿**فَيَمِيْلُوْا مَيْلاً ـ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيْضَةً ـ لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوْهُ ـ يُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ـ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ ـ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ**﴾. إنّ هذه التعابير القرآنية في قمّة البلاغة العربية ولكن لن يخدم غرض الترجمة نقلها كما هي إلى تعبير مماثل في الأردية بل إن المترجم يضطر إلى أن يستفرغ وسعه في إيجاد

أبلغ تعبير ممكن في حدود إمكانياته اللغوية و ملكاته البلاغية لينقل هذه المعاني القرآنية إلى الأردية وذلك طبعا لا يتحقق إلا بقدر ما تملك اللغة الأردية من رصيد لغوي وذخيرة بلاغية.

وهكذا نرى في القرآن الكريم كلمات متقاربة المعنى تعبّر عن مفاهيم دقيقة لا يوجد لها مرادفات في الأردية بل وفي كثير من لغات العالم، مثل: الحية والجان والثعبان، ومثل البعير والجمل والإبل. ومثل أسماء الأوقات المختلفة في اليوم كما استعملت في القرآن الكريم مثل: بكرة، أصيل، ضحى، غسق، فجر، صبح، غدو، عشية، ظهيرة، عصر، والمعلوم أنه لا يوجد في الأردية مرادفات لهذه الكلمات العشرة ولكثير من أمثالها الموجودة في القرآن الكريم. فمن البديهي أن التعبير عن معاني كلام الله المعجز بلسان البشر العاجز ليس بأمر هيّن ولا يؤهل لإنجاز هذا العمل العظيم إلا من كان له باعاً طويلاً في الدراسات القرآنية والعلوم العربية واحتك طول عمره احتكاكا داخليا عميقا مع كتاب الله.

وقد قمنا باختيار ترجمة الإمام أشرف علي التهانوي (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م) رحمه الله للتعريف في هذه الصفحات لما يمتاز هذه الشخصية الفذة بمكانة رفيعة وتأثير واسع في المحيط الثقافي الإسلامي الهندي في القرن العشرين كما تتسم ترجمته بخصائص ومزايا قلما نجدها في غيرها من التراجم الأردية التي ظهرت بعدها مع كثرة عددها.

ولد الإمام أشرف علي التهانوي في "تهانه بهون" قرية قريبة

من دلهي سنة ١٢٨٠هـ في أسرة عريقة في العلم والجهاد ويصل نسبها إلى أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخذ العلم عن كبار علماء عصره في الهند وفي الحجاز وعكف على التدريس والدعوة والإرشاد مدة ستين سنة من عمره. وألّف ما لا يقل عن تسعمائة كتاب بين حجم كبير وصغير حول أهم مجالات العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والكلام والتصوف والأخلاق والإصلاح الاجتماعي. وتتميز كتاباته بالجمع بين المنهج العقلي والروحي فهو في نفس الوقت يخاطب القلوب ويحاور العقول. والتف حول الإمام أشرف علي التهانوي كبار رجال العلم والفكر الإسلامي إلى جانب عامة المسلمين في المجتمع الإسلامي الهندي، واستفادوا من كتبه وتعاليمه الإصلاحية التربوية سواء بالقراءة أو بالتتلمذ المباشر. هذا وللإمام أشرف علي التهانوي دور رئيسي في مساندة حركة إنشاء باكستان كدولة إسلامية مستقلة قائمة على أساس النظرية السياسية الإسلامية.

لقد أنجز الإمام أشرف علي التهانوي عمله في ترجمة القرآن وتفسيره في سنة ١٣٢٦هـ وأصدره بعنوان: **بيان القرآن** في نفس السنة ثم راجع المؤلف الترجمة والتفسير وأصدر طبعة أخرى في حياته في سنة ١٣٥٣هـ تحت إشرافه الشخصي. وبعد وفاته في عام ١٣٦٢هـ صدرت منها عشرات الطبعات وأقبل عليه القرّاء المثقفون إقبالا كبيرا. وكانت لها صدى واسعة بين المسلمين في الهند بأسرها حيث استفادوا من عمله هذا في فهم رسالة القرآن كما

اعتمد عليه جماعة من المفسرين الآخرين في كتاباتهم التفسيرية التي صدرت من أقلامهم بعد صدور **بيان القرآن**؛ وأهم هؤلاء المفسرين الشيخ عبد الماجد الدريا آبادي (ت ١٩٧٧م) الذي ألّف تفسيرا في الأردية وآخر في الإنجليزية في عدة مجلدات[٤].

إن **بيان القرآن** ليست ترجمة لمعاني القرآن فحسب بل إنما هو تفسير شامل لكتاب الله فهو يحيط بالجوانب الفقهية والكلامية والصوفية والبلاغية. كما يعالج فيه المؤلف طائفة من الشبهات العقلية التي ظهرت لدى الناس في هذا الزمن تحت تأثيرات التفكير الغربي المادي. ويمتاز هذا التفسير بتركيزه على القضايا الاجتماعية للمسلمين وبتحريض المسلمين أيضاً على إقامة مجتمع إسلامي يقوم على سنن الإسلام الأخلاقية النبيلة ومثله الروحية الرفيعة. ولكننا بهذه المناسبة لسنا بصدد الحديث عن خصائص هذا التفسير بل غرضنا من هذا المقال هو إبراز مزايا هذه الترجمة الأردية التي هي جزء هام من هذا التفسير بل إن الترجمة قد طبعت عشرات المرّات على حدة من التفسير كما ظهرت عدة طبعات للترجمة ومعها على الهامش تلخيص لتفسير **بيان القرآن** فسوف ينحصر كلامنا في الصفحات الآتية في الترجمة.

يقول الإمام أشرف علي في مقدمته لتفسير **بيان القرآن** إن الذي دفعه إلى هذا العمل هو شعوره بحاجة المسلمين إلى تفسير "شامل للضروريات خال عن الزوائد"[٥]. وهذه الميزة تنطبق على ترجمته أيضا وذلك لأن الترجمة تتجلى فيها خلاصة فهمه للقرآن،

وهي في نفس الوقت ترجمة سهلة بسيطة. وهنا نلاحظ بين مترجمي القرآن إلى الأردية اتجاهين: الأول الاكتفاء بأقل عدد من الكلمات وأقربها إلى النص القرآني كما يوجد في ترجمتي الشاه رفيع الدين والشاه عبد القادر الآنفيّ الذكر. والاتجاه الثاني هو الاسترسال في التعبير عن المدلول القرآني العام بدون أي تقيّد بالنص القرآني الأصلي وبغير تحفظ في استخدام الكلمات الأردية ويمثل هذا الاتجاه الشيخ أبوالأعلى المودودي في تفسيره الموسوم بـ **تفهيم القرآن**؛ أما الإمام أشرف علي التهانوي فهو يجمع بين هذين الاتجاهين. فهو أساسا يحافظ على ترجمة معاني القرآن الكريم بالتعبير الأردي الأقرب إلى النص القرآني بقدر ما يتيسر له ذلك ثم يضيف شرحا موجزا بين القوسين داخل النص الأردي كلما مسّت الحاجة إلى التوضيح. وهو يفعل ذلك خاصة في المناسبات التي توجد فيها عدة وجوه للدلالة القرآنية التي تقتضى تحديد مدلول معين. ولذلك هو يسمي عمله هذا "التفسير المختصر" أو "الترجمة المطوّلة"(٦).

وخلافا لبعض المترجمين الهنديين الآخرين يستغني الإمام أشرف علي التهانوي في كتابته الأردية عن استخدام أساليب تعبيرية متداولة في مناطق معينة من الهند دون مناطق أخرى حتى تكون الترجمة مفهومة لجميع الناطقين بالأردية في عموم الهند فهو يلتزم بالأسلوب الإنشائي المتَّبع في جميع مناطق البلاد الناطقة بالأردية على اختلاف نزعاتها الأدبية وأذواقها اللغوية.

وقد نبّه الإمام أشرف علي التهانوي قرّاءه في مقدمته لبيان القرآن على ضرورة الاتصال المباشر بكتاب الله والتدبر في معانيه أولا ثم الرجوع بعدئذ إلى الاستفادة من ترجمته أو تفسيره حينما يصعب على القارئ فهم أمر معين أو يبقى المراد من كلام الله مجملا في ذهنه فعندئذ هو يوصي بالرجوع إلى التفسير لحل المشكلات التي لا تنحل بالتدبر المباشر- ولم يكتف الإمام أشرف علي -رحمه الله- بذلك بل حثّ أيضاً على ضرورة الاستفادة من العلماء المتخصصين لحل المشكلات التي يعجز عنها تفسيره فهو بذلك يؤكد على التمييز بين كتاب الله الخالد وبين الجهد البشري المحدود لفهم الكتاب(٧).

وقد اهتم الإمام التهانوي -رحمه الله- ببيان ربط كل سورة بمحتويات السورة السابقة كما فعله كثير من المفسرين ولكنه بالإضافة إلى ذلك يربط في ترجمته مضمون كل آية بفحوى الآيات السابقة ربطا منطقيا واضحا وهذا أمر لم يلتزم به كثير من المفسرين وقلّما عني به المترجمون للقرآن الكريم.

ومن مزايا هذه الترجمة التفسيرية أنّها توفّر إجابات موجزة على كثير من الشبهات التي قد تجول في خواطر القرّاء حول دلالة بعض الآيات القرآنية. ولكنه لم يتعرض إلا للشبهات التي تستند إلى وجه من وجوه الدليل الصحيح كآية قرآنية أخرى أو حديث صحيح أو أمر آخر ثبت بدليل عقلي أو بشاهد حسّي.

أما الشبهات التي تخرج من هذا الإطار فهو لا يرى داعيا

إلى معالجتها ويقول أنه يكفينا ردّا على ذلك: "طلب الدليل من الخصم"[٨] ولكنّه لا يصرّح بالشبهات في ترجمته التفسيرية بل يكتفي بالرد على طريق **دفع دَخل مقدّر** وهكذا يندفع كثير من الشبهات بالترجمة ذاتها.

ومن الأمثلة على ذلك ترجمته لقوله تعالى:

﴿**يَعِيْسَى إِنِّيْ مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾

فيقول في ترجمته الأردية ما معناه:

"إني سوف أعطيك الوفاة في أوانها وأما الآن فأنا أرفعك إليّ".

وهذا التعبير ينقض زعم الذين يشكّون في حياة عيسى عليه السلام وعودته إلى الدنيا قبل نهاية التاريخ أو ينكرونها مثل الطائفة القاديانية.

وهكذا نجده يترجم معاني الآيات التي تتحدث عن الأنبياء والرسل بحيث تلاءم مقام الأنبياء والرسل فيقول مثلاً في ترجمة قوله تعالى:﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَّبِهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾: "...توجّه إليه بالرحمة" فغادر هنا إلى المعنى اللغوي لكلمة "تاب" من معناها الاصطلاحي.

ويقول في ترجمة الآية: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾ "وزدنا طاعة لك" فلم يترجم هذه الآية بحيث يوهم قلة الإسلام أو عدم وجوده قبل هذا الدعاء.

ويقول في قوله تعالى: ﴿**وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ**﴾: "كن متوجّها إلينا بالرحمة". ويضيف في الهامش: "لا حاجة هنا إلى التأويل بتعليم الأمة أو إلى حمله على التواضع".

ومن الأمثلة الأخرى للردّ على سؤال مقدّر ما نجد في قوله تعالى: ﴿**أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ فقد أضاف بين القوسين: "باستثناء ما لا ينبغي من الدعاء" حتى لا يتوهم أحد بقبول كل الأدعية سواء أكانت مناسبة لحال العباد أم لا.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوْا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى**﴾ نرى أن الشيخ أشرف علي التهانوي -رحمه الله- عدل عن التراجم الأخرى فهو يقول في ترجمة هذه الآية: "فإن خير ما في الزّاد هو وقاية الانسان نفسه من الشحاتة والسؤال" فحمل التزود بمعناه الحقيقي والتقوى بمعناه اللغوي.

وفي قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا...وَالَّذِيْنَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ فهو يترجم: ﴿**وَالَّذِيْنَ اتَّقَوْا**﴾ بقوله: "أي الذين يتجنبون الكفر والشرك" ويقول في الهامش: "إشارة إلى اتحاد المؤمن والمتقي مفهوما وتغيير العنوان للإشارة إلى علة الحكم".

وفي قوله تعالى: ﴿... **قُلِ الْعَفْوَ**﴾ يقول المترجم رحمه الله: "بقدر ما تيسّر". ثم يضيف بين القوسين: "حتى لا يقلقوا ولا يقعوا في مشقة دنيوية بهذا الإنفاق ولكي لا يقعوا في مصيبة أخروية بإضاعة حق من الحقوق. ثم في نفس السياق يضيف في القوسين بعد قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُوْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ**﴾: "حتى تعلموا بالأحكام وبهذا العلم يمكن لكم أن تتفكروا قبل مباشرة كل عمل من أمور الدنيا والآخرة فتعملوا طبقا لهذه الأحكام المعلومة".

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمِن يَّتَعَدَّ حُدُوْدَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ**﴾: يقول الإمام أشرف علي التهانوي رحمه الله في ترجمة هذه الآية: "الذين يخرجون من إطار ضوابط الله تعالى فأولئك هم الذين يضرّون أنفسهم".

وفي ترجمة قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَتَّخِذُوْآ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً**﴾، يقول: "ولا تتهاونوا بأحكام الله مثل اللهو واللعب فتفعلوا ما شئتم أو لا تفعلوا شيئا البتة".

وفي ترجمته لقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لاَ يُتْبِعُوْنَ مَآ أَنْفَقُوْا مَنًّا وَلاَ أَذًى...**﴾: يقول: ﴿**لاَ يُتْبِعُوْنَ مَآ أَنْفَقُوْا مَنًّا**﴾: "على من انفقوا عليه باللسان" ﴿**وَلاَ أَذًى**﴾: "بإساءة المعاملة معه".

وأخيرا نجده يترجم قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾: بالكلمات الآتية: "هو الذي أنزل القرآن عليك، فقسم منه هي الآيات السليمة من اشتباه المراد (أي أن مرادها واضح ومفادها ظاهر) وهذه الآيات هي المدار الأصلي لهذا الكتاب (بحيث يوفق كلما كان غير ظاهر المعنى بظاهر المعنى فيحمل الأول على الثاني). "والقسم الثاني من الآيات فهي مشتبه المراد أي خفي مرادها إما بسبب كونها مجملة أو لكونها معارضة لنصّ آخر ظاهر المعنى- فأما الذين في قلوبهم زيغ فهم يتبعون القسم الذي هو مشتبه المراد يبتغون به الفتنة (في الدين) وبحثا عن مراده (حتى يحتجّوا به في عقائدهم الباطلة) والحقيقة أنه لا يعلم المراد الصحيح منه إلا الله-

ولذلك الراسخون في العلم (علم الدين) وأولوا البصيرة فيه يقولون عن هذه الآيات: نؤمن بها إجمالا فكل الآيات (سواء أكانت ظاهرة المعنى أو خفية المعنى) من ربّنا فنؤمن بما هو في الواقع المعنى المراد من هذه الآيات أنه الحق -ولا يقبل النصح إلا أهل العقل (فمقتضى العقل اجتناب ما هو عبث وضارّ والاشتغال بما هو مفيد وضروري).

هذا وإن الإمام أشرف علي التهانوي لم يخرج في الرد على الشبهات من حدود مذاهب السلف وآراء المتقدمين كما فعله بعض المفسرين في القرن العشرين حينما حاولوا تأويل غيبيات القرآن الكريم في ضوء بعض المعطيات للفكر المادي الغربي الذي استحوذ على بعض العقول منذ القرن التاسع عشر الميلادي. وربما كان الإمام التهانوي **هو أول من قال بجراءة أن العلوم الطبيعية التجريبية ونتائجها ظنية مؤقتة ولا يجوز المغادرة عن مدلولات القرآن الثابتة لأجل الاتفاق والتكيّف معها** - ولكنه في نفس الوقت لم ير بأسا في بيان ما بلغت من نتائج العلوم التجريبية إلى درجة الثبوت والتي تتلاءم مع ظاهر المدلول القرآني الذي يصل إليه العقل المسلم بدون تكلّف. فهو يجيز ذلك لأجل تقريب الرسالة القرآنية إلى العقلية المعاصرة.

وكذلك لم يعتن الإمام التهانوي رحمه الله تعالى بأيّ أمر خارجٍ عن حدود الضرورة في فهم المراد من كلام الله ولم يغادر في ترجمته شيئا من التفسير بالمأثور كما لم يأخذ من آراء المتأخرين ما

تعارضت مع تفسير المتقدمين. وكلما وجد آراءً عديدة عند السلف رجّح القول الأقرب إلى الرواية الصحيحة أو الأنسب بمقتضى السليقة العربية.

وقد اعتنى الإمام التهانوي رحمه الله في ترجمته اعتناءً خاصا بالدرجات المتفاوتة في أفهام القرّاء فلم يبالغ في استخدام لغة العوام إلى درجة إزالة التمييز بين أي كتاب عادي وبين هذا العمل الشريف المشتمل على ترجمة معاني كلام الله المعجز وكذلك لم يتكلف استعمال كلمات ثقيلة غريبة يستعصى فهمها على عامة الناس. وباختياره هذا المنهج الجامع للمعيارية وتيسير الفهم خرجت الترجمة بميزة نادرة وهي كونها نافعة لطبقات متفاوتة في المعارف الدينية والثقافة العصرية وقد شهد بهذا كبار العلماء في شبه القارة واعترفوا بهذا الفضل للإمام أشرف علي التهانوي بين مترجمي القرآن.

وقد بيّن الإمام أشرف علي التهانوي خمسة عشر شرطا يجب توفرها لدى كل من أراد ترجمة القرآن وذلك بصدد تعليقه على ترجمة أردية أخرى للشيخ نذير أحمد الدهلوي الذي كان من معاصريه(٩). فهو يقول أنه يجب على كل مترجم للقرآن:

١- "أن يتقن اللغة العربية بحيث يستطيع ترجمة معاني القرآن مباشرة بدون الاستعانة بالتراجم الأخرى.

٢- أن تكون لديه حذاقة كاملة في علوم اللغة العربية من الصرف والنحو والبلاغة وفقه اللغة حتى يمكنه مراعاة ترتيب الكلمات

وتركيبها ومعرفة أساليب الكلام العربي والوقوف على دقائقه.

٣- أن لا ينحصر فهمه وبحثه في معرفة المدلولات اللغوية للكلمات بل يجب أن يكون مضطلعا بالمصطلحات الدينية اضطلاعا كاملا.

٤- أن يكون ممن تلقّوا علم الحديث من أساتذته المتخصصين الخبراء لكي لا يلتبس عليه أمر أسباب النزول المستندة إلى الأحاديث النبوية.

٥- أن يكون على بصيرة تامة بمذاهب الفقهاء المجتهدين حتى لا يعارض ما تم عليه الإجماع في تفسير آيات الأحكام.

٦- أن يكون مطلعا على عقائد أهل السنة جملة وتفصيلا وأن يكون خبيرا بقضايا علم الكلام حتى يصون فهمه من عقائد المبتدعة والفرق الضالّة.

٧- أن يكون عالما بآراء المفسرين المحققين في علم التفسير حتى يعرف قضايا النسخ التي يجب اعتبارها في الترجمة.

٨- أن يكون ملما بعلم الأصول والمعقولات إلى درجة القدرة على إقامة الدليل العقلي على بياناته في الترجمة والتفسير كلّما مسّت الحاجة إلى ذلك.

٩- أن لا يكتفي بالترجمة وحدها في المناسبات التي تتعلق بتأويل الآيات التي أشكلت معانيها أو تعددت مدلولاتها أو التي تحتاج إلى رفع تعارض، أو بيان النسخ أو حل المشكل أو توضيح المبهم أو تفصيل المجمل بل يشرح هذه المقامات في الهامش.

١٠- أن يتقن اللغة التي يريد الترجمة إليها اتقانا كاملا يجمع بين مهارة اللغة وممارسة في الكتابة والإنشاء.

١١- أن تكون سيرته صالحة وعقيدته صحيحة حتى يتجنب الابتداع ويسلم من اتباع الأهواء ويحذر ارتكاب الخيانة في إظهار الحق.

١٢- أن يكون مقبولا بالجملة بين العلماء الموثوق بهم في زمنه.

١٣- أن يكون ألمعيا فطنا حتى يعالج الأقوال المختلف فيها بفهم وسداد ويلاحظ أعلى درجة من الدقة العلمية في عرض شبهات المعارضين ودفعها.

١٤- أن يلتزم كتابة ترجمة القرآن دائما إلى جانب النص القرآني العربي.

١٥- أن لا يكون مستكبرا بفهمه الذاتي ولا معجبا برأيه حتى يكون عنده الاستعداد للرجوع إلى أصحاب العلم والسؤال من أهل الذكر عندما لا ينشرح صدره في مسألة معينة فلا يشعر في نفسه تحفظا في الاستفادة من العلماء المعاصرين وتصحيح أخطائه عندما يدرك تقصيره في الفهم".

ويؤكد الإمام أشرف علي رحمه الله، على استيفاء هذه الشروط لدى المترجم ويعتبر التفريط في أي واحد منها مرادفا للإثم والخطيئة(١٠).

والإمام أشرف علي التهانوي يعتمد أساسا على المنهج الحنفي في استنباط الأحكام الفقهية من آيات القرآن الكريم حيث أنه هو المذهب السائد للمسلمين في بلاد الهند ويشير إلى المذاهب

الأخرى في الهامش عند الضرورة وأما في المسائل الكلامية فهو يتبع المذهب الماتريدي. وله كلام لطيف في قضية تقليد السلف فهو يقول "إنني مقلّد في المسائل ولكنني محقق في التقليد".

وفيما يتعلق بالشبهات الكلامية والردّ عليها يقول الإمام:

"إن أصول الإسلام من التوحيد والرسالة هي كلها مبنية على أسس عقلية متينة كما يشير إليه القرآن في تعبيره المتكرر: ﴿**إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ**﴾ ولكن ليس بالضروري أن تكون الفروع المستنبطة من هذه الأصول أيضا مستندة إلى العقل ولكن يكفيها قبولا أن لا تتنافى مع دليل قطعي ثبت بالعقل وكثيرا ما يضل الشباب الناشئة بسبب الخلط بين هذين الأمرين مما يؤدي إلى الضلالة والانحراف عن الدين"(١١).

ويمكن القول في ضوء ما سبق أن لهذه الترجمة التفسيرية قيمة علمية ثابتة لا يدانيها أي عمل آخر في هذا المضمار. وعلاوة على الخصائص العلمية الواضحة التي ميزت هذه الترجمة من التراجم الأردية الأخرى، هناك ناحية أخرى ليست بأقل أهمية وخطورة من الناحية الأولى. وهي أن لله تعالى سننا ثابتة في قبول أعمال الناس وعدم قبولها. ومع أن الفهم الإنساني المحدود لا يسعه أن يصل إلى كنه هذه السنن الإلهية ولكن يمكن أن نقول بناءاً على ما جاء صريحا في النصوص القرآنية و لأحاديث النبوية أن من أهم أسباب قبول الأعمال عند الله تعالى هو إخلاص النية في العمل وبقدر درجة العبد في إخلاصه يترقّى في سلّم القبول عند ربّه فبالإخلاص وحده

تتوجه إلى العبد الرحمة الإلهية ويصدر الأمر الربّاني بالإعلان في الملأ الأعلى بقبول عمله وشيوع علمه وازدياد نفعه في الخلق واستمرار ثمرات الأعمال عبْر الأجيال ويستفيد منها الناس قرونا طويلة. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِيْ الْأَرْضِ﴾. ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الْطَيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

ومن أمارات إخلاص الإمام أشرف علي التهانوي أنه مع غزارة تأليفه الذي بلغ تسعمائة كتاب مطبوع بعشرات الطبعات لم يتخذ أجراً على أعماله العلمية وأطلق الحرية لدور النشر في طباعة كتبه ولم يحتفظ بأيّ حق في الطباعة. فنرجو أنه قد بلغ مراده بذلك ونال قبولا عند ربه قد لا يناله آخرون ممن يطمعون في أجور الدنيا أكثر من ثواب الآخرة ولا ندري مدى نصيبنا نحن في الآخرة إذا حرصنا كثيرا في أجور الدنيا، والله المستعان وعليه التكلان.

ندعو الله تعالى أن يرفع درجات هذا الإمام الجليل من أئمة الإسلام. ووفقنا جميعا لما فيه رضاه - إنه عزّ وجلّ سميع مجيب.

هوامش

١- راجع **فتح السند**، تحقيق ن - أ - بلوش، دمشق ١٩٩١م.

٢- راجع دراسة الدكتور أحمد خان: **قرآن كريم كى أردو تراجم، (تراجم القرآن الكريم إلى الأردية)** إسلام آباد، ١٩٨٧م، ص ١٢.

٣- نفس المصدر ص ص ٢٣-٢٧٠. وقد أعد المؤلف فهرسا شاملا لهذه التراجم في كتابه هذا. وقد ظهرت بعد صدور الكتاب عام ١٩٨٧م تراجم أخرى جديدة خلال السنوات العشرة الماضية.

٤- لقد صدرت الطبعة الأولى من **تفسير قرآن** (بالأردية) للشيخ عبدالماجد دريا آبادي رحمه الله (وف ١٩٧٧م) الأديب اللبيب والكاتب المعروف الذي كان من كبار تلامذة الإمام أشرف علي التهانوي رحمه الله. في ١٩٦٢م. وبعد صدور الطبعة الأولى واصل الشيخ دريا آبادي رحمه الله مراجعة الكتاب وأدخل فيه بعض ما توفر له من معلومات تاريخية وعلمية جديدة وأصدر طبعة أخرى في حياته بعد هذه المراجعة وكان ذلك في عام ١٩٦٨م وقد تولّى بنفسه طبع الكتاب وأشرف عليه في قريته" دريا آباد"- وكما يخبرنا المؤلف في مقدمته إنه لم يكتف بالاستفادة من تفسير بيان القرآن كمرجع علمي فحسب بل إنه تتلمذ على الإمام أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى بحكم معاصرته له واستشاره مباشرة في معالجة كثير من القضايا التفسيرية هذا وإن هذا التفسير أيضا يحتوي على معلومات تفسيرية قيمة مستفادة من مراجع التفسير المعروفة للعلماء المتقدمين والمتأخرين . كما انه يشتمل على معلومات علمية معاصرة مفيدة في فهم رسالته القرآن وتطبيق تعاليمه على واقع الحياة الإنسانية الحديثة.

٥- انظر: بيان القرآن للشيخ أشرف علي التهانوي كراتشي، باكستان (مطبعة غلام علي- تاريخ الطبع غير مذكور) ج ١ص ٣، مقدمة المؤلف.

٦- نفس المصدر ، مقدمة المؤلف، ص ٥.

٧- نفس المصدر ص ٤.

٨- نفس المصدر، ص ص - ٥-٦.

٩- انظر : **إصلاح الترجمة الدهلوية** للإمام أشرف علي التهانوي، كانبور (الهند) ١٩١١م.

١٠- راجع: الدراسة التحليلية لتفسير **بيان القرآن**، للدكتورة ريحانة ضياء صديقي، دلهي، ١٩٩١م، ص ص. ١٣٤-١٣٦.

١١- نفس المصدر ، ص ص ١٥١-١٥٢.